الشاعر العربي المعاصر و مثاقفة التراث

الأستاذ: بوعيشة بوعمارة
قسم الآداب و اللغة العربية
كلية الآداب و اللغات
جامعة زيان عاشور-الجلفة (الجزائر)

ملخص:

باعتبار التراث "معطى حضاريا وشكلا فنيا في بناء العملية الشعرية"، فقد ذهب الشاعر المعاصر إلى مثاقفته ومراجعته، مراجعة واعية وفاعلة وحداثية، تمكنه من كشف كنوزه وقيمه، والعمل على تثمينها وتوظيفها بما يخدم تجربته الشعرية المعاصرة، ويوسع فهمه لها، ويمنحه رؤيا جديدة تكفل له الإبداع الحق، بعد أن يكون هذا التراث جزءًا من تكوينه الخاص، يصقل منهجه ونظرته وفهمه وتذوقه للشعر الذي يمارسه دون أن يحبس نفسه فيه، بل يتجاوزه، ذلك أن آليات تشكيل القصيدة المعاصرة لا يمكنها التحقق إبداعيا إلا بعد أن يحدد الشاعر موقفه من التراث، وفهمه لعلاقة هذا التراث بنصه المبتدع.

وهذه الدراسة استجلاء لهذه العلاقة بين الشاعر المعاصر والتراث

Résumé:

Considérons le patrimoine comme un don civilisationnel et une forme artistique pour la construction de l'acte poétique, c'est pour ce que le poète contemporain s'est destiné vers la culturation et la révision approfondie et opérationnelle qui peut lui permettre de dévoiler ses trésors et ses valeurs, et de travailler pour valoriser ce patrimoine et le rendre fonctionnel au service de l'expérience poétique contemporaine. Cela peut rendre vaste sa compréhension et donner de nouvelles visions créatrices, après que ce patrimoine soit une partie de soi-même, il taille sa méthode et son point de vue ainsi que le goût poétique qu'il exerce sans qu'il emprisonne soi-même dedans, cependant il le dépasse. En tenant compte que les mécanismes de formation de la poésie moderne ne peut artistiquement être réalisés qu'après la précision de l'attitude du poète de patrimoine et la compréhension de la relation existant entre le texte crée et les préjugés civilisationnels, et cette étude est un essai de dévoiler la relation
entre le poète contemporain et le patrimoine.

إن التراث منجم طاقات إيحائية لا ينفذ له عطاء، فعناصر هذا التراث ومعطياته لها من القدرة على الإيحاء بمشاعر وأحاسيس لا تنفذ، وعلى التأثير في نفوس الجماهير ووجدانهم ما ليس لأيّة معطيات أخرى يستغلها الشاعر، حيث تعيش هذه المعطيات التراثية في وجدانات الناس وأعماقهم تحفُّ بها هالةٌ من القداسة والإكبار، لأنها تمثل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكري والوجداني والنفسي.

لذلك سعى الشعراء المحدثون إلى إعادة التراث بكل مشخصاته ووقائعه، وذلك بكشف كنوزه «وتجليتها وتوجيه الأنظار إلى ما فيها من قيم فكرية وروحية وفنية صالحة للبقاء والاستمرار»[1]، إذا أدركوا «أنه لا نجاة لشعرنا من الهوّة التي انحدر إليها بغير ربطه بتراثه العريق، ووَصْل بأسبابه بما في ذلك التراث من عوامل القوة والنماء».[2]

إن التراث «ليس حركة جامدة، ولكنه حياة متجددة، والماضي لا يحيا إلاّ في الحاضر، وكل قصيدة لا تستطيع أن تَمُدَّ عمرها إلى المستقبل لا تستحق أن تكون تراثًا»[3]؛ فالتراث هو الموروث الثقافي والديني والفكري والأدبي والفني، وكل ما يتصل بالحضارة والثقافة:من قصص وحكايات وكتابات وتاريخ أشخاص وقيم وما عبّر عنه ذلك كله من عادات وتقاليد وطقوس.

وهنا ينبغي أن نفرق بين مفهوم التراث ومفهوم الثبات، بحيث لا نعتبر التراث نقيضا لكلِّ تغير وأن نميز أيضا بين توق العادة إليه كما ورثناه، والتوق إلى شحن الحياة التي خلَّفته، وتفجيرها لكي نضيف إليه شيئا جديدا؛ذلك أن التراث لكل شاعر هو في المعنى الأخير بين الإمكانات والقيم التي يزخر بها، وليس أخذا بالجملة لهذه القيم.

من هنا ذهب الشاعر العربي المعاصر إلى خلق علاقات مثاقفة واعية ومتجاوزة في الوقت ذاته للتراث وطالب بضرورة الانتماء عن قناعة وإرادة للشعرية العربية، ومراجعة التراث مراجعة حداثية من خلال العمل على تفعيل هذا التراث «بوصفة معطى حضاريا وشكلا فنيا في بناء العملية الشعرية».[4]

وهو لم يعرف التراث بهذا الفهم إلاّ بعد الخمسينيات من هذا القرن بظهور جيل جديد احتكّ بالثقافة العربية وتأثّر بها تأثُّرا قويا وعميقًا، غير أن الشعر المعاصر«لم يشكل السابقة الشعرية الأولى في توظيفه لهذا التراث، فقد كان هناك رعيل أوّل سبقه في هذا الميدان، مهَّد الطريق وذلّل الصعوبات، فشكّل بحضوره أثرًا في تجربة الشعراء اللاحقين، وكانت أسبقية الشعر في كيفية تناول هذا التراث، وآليات توظيفه واختيار رموزه التي تضفي على التجربة الشعرية بُعدها الفني والإنساني».[5]

ولعلّ موقف الشاعر المعاصر من التراث قد حدّد القيم الجمالية للتجربة الشعرية المعاصرة، حيث أصبح «التراث الإنساني لدى الشاعر المعاصر جانبا من تكوينه الشعري، ذلك أن تجربة الشاعر المعاصر محاولة جاهدة لاستيعاب الوجدان الإنساني عامة من خلال إطار حضارة العصر وتحديد موقف الشاعر منه كإنسان معاصر».[6]

أضف إلى ذلك أن استخدام الشاعر المعاصر للتراث يضفي على عمله الشعري «عراقة وأصالة ويمثل نوعا من امتداد الماضي في الحاضر، وتغلغل الحاضر بجذوره في تربة الماضي الخصبة المعطاء، كما أنه يمنح الرؤية الشعرية نوعا من الشمول والكلية»[7]، حيث يجعلها تتخطىَّ حدود

الزمان والمكان، ويتعانق في إطارها الماضي مع الحاضر، فمراجعتنا للتراث هي مراجعة للحاضر، وفهمنا للحاضر استشراف للمستقبل.

إن «لحظة الإندماج المتوتر الفريد بين الحاضر والماضي هي ما يتوجب على الشاعر العربي الحديث تحقيقه وعيا وممارسةً، وعبر هذه اللحظة البالغة الفرادة يتم التحام الحاضر والماضي معًا ليضيء أحدهما الآخر، ويصبح كل منهما أكثر معرفةً بنفسه».[8]

وهذا ما يحدد الكثير من رؤيا الشاعر وحداثته، لأنَّ الحداثة الشعرية الفاعلة هي التي ترتبط بنظرة إلى العصر ومستجداته من جهة، وإلى التراث وكوامنه التعبيرية القادرة على الاستمرار من جهة أخرى.

وممّا لاشك فيه أن توظيف التراث بطرق وتقانات وأساليب متعددة ومبتكرة وسع مفهومه، وأضحى تراثا إنسانيا، وهذا ما أكده إحسان عباس قائلا: «وأما موقف الشاعر الحديث من التراث الحضاري بعامة، فإن الحديث عنه يستلزم أن نوسع من مدلول التراث ومجاله، إذ هو لم يعد تراثا عربيا إسلاميا فحسب، وإنما غدا تراثا إنسانيا».[9]

فالتراث لا يحصر في ثقافة معينة أو حضارة ما «إنما هو عام ومتكامل لا ينفصل بعضه عن بعض إنه كل ما يتركه الأول للآخر ماديا ومعنويا، وهذه نظرة شاملة للتراث باعتباره الماضي المؤثر في الحاضر والمستقبل»[10]، غير أنه لا يجب أن نفهم بأن التراث هو كل ما خطه الأقدمون وحفظته الصفحات ، لأن التراث عند الشاعر هو ما يحبُّه من هذا الذي خطهُ الأقدمون وحفظته الصفحات، فيختار النماذج الصالحة للتفاعل ليؤسس رؤيا ورؤية «ومن هذه الرؤية الجديدة يبدع شعره الجديد، فالابتداع تواصل مع التراث وانقطاع عنه معا، ارتباط به وثورة على الفاسد منه، حتى

لا يكون نسخةً عنه وتقليدا له، والجديد ليس هدما للقديم، بل إنه إعادة قراءة لهذا القديم في ضوء التجربة الحديثة».[11]

فالتراث هو أصل كل إبداع إذ به وفيه يتم التحديث، وكل ادعاء بالقطع مع التراث هو وجه من وجوه التخلي عن الهوية، لذلك على الشاعر المعاصر أن يدرك «أن تراثه القديم قد كان هو المنبع الذي ساقه إلى إبداع جديد، ولعلّ إنكاره والمغالاة في النفور منه مظهر من مظاهر ضعف الثقة بالنفس عند الأمم».[12]

لقد حاول الشاعر العربي المعاصر أن «يعيد النظر إلى هذا التراث في ضوء العصرية لتفجير ما فيه من قيم ذاتية باقية روحية وإنسانية، وتوطيد الرابطة بين الحاضر والتراث عن طريق استلهام مواقفه الروحية والإنسانية في إبداعنا العصري»[13] وهو بعودته هذه يكون «في سبيل بناء عالم جديد، وعلاقات إنسانية سوية»[14] مستعينا بمكونات التراث ورموزه من أجل النهوض بهذه المهمة السامية، بعد أن تجاوز تدوين ذلك التراث وتسجيله، وأصبح يتعامل معه «من خلال منظور تفسيري يحاول من خلاله أن يكشف تلك الروح الشاملة الخالدة الكامنة في هذا التراث»[15]، وإذا «كان التراث قوة كامنة تربط عمل الشاعر بأعمال أسلافه باعتبار أن الإنسان قيمة ثقافية ونفسية، وثيقة الصلة بصورة الماضي ونماذجه العليا، فإن حقائق الواقع تفوقه فاعليةً وتأثيرًا».[16]

فعلى الشاعر المعاصر أن يفهم التراث وأن يعيه حتى يتغلغل هذا التراث في نفسه، بحيث يصبح جزءا من تكوينه يستطيع بعده أن يصل إلى أسلوبه الخاص، والشاعر من هذا المستوى، يتجاوز التراث عادة، فيضيف

إليه شيئا جديدا، ولا يأوي إلى ظلّه بل يخرج إلى ساحة التجربة الواسعة، ويحسُّ إحساسًا عميقًا بسيطرته على اللغة بل على الشعر.

إن تجربة الشعر الجديدة تخلص لروح التراث، وإن تمردت على أشكاله وقوالبه، والشعر المعاصر لم يطرح قضية التراث جانبا –كما يتوهم البعض– بل هو «أعمق وأصدق ارتباطا بها، وكل ما في الأمر أنه لا يعيش فيه شكلا وقوالب .. بل يعيش فيه كيانا بيانيا مقصودا إليه قصدا، وله أبعاده الفكرية والإنسانية .. وفي هذا يتحدد الفرق الجوهري بين أن تعيش في التراث وأن تعيش "بـ" التراث»[17]

الحداثة الشعرية ليست معادية للتراث –كما يخطئ البعض– فمن خصوصياتها «تمثُّل التراث وليس اجتراره إنها لا تلغي التراث لأنها تساؤل مستمر الوهج عن الواقع، ودحض لهذا الواقع»[18]، وهذه القراءة ترتبط ارتباطا جدليا بقضية الحداثة، فلا تطرح قضية التراث إلا وقضية الحداثة حاضرة ضمن نص الحديث[19]، ويرجع ذلك إلى العلاقة التكاملية التي تجعل من الحداثة خلال هذا الطرح (تراث وحداثة) «محاولة تركيب بين التراث والتجديد والأصالة والمعاصرة»[20] ففي موقف الشاعر من التراث «تتضح معالم الثورة، ومن ثمّ تتضح الحداثة .. فلما أخذ الشاعر يتساءل عن مدى ارتباطه بالتراث –ومن ثم بالماضي وبالتاريخ– أصبح على أبواب ثورة جديدة».[21]

إن تراثنا الشعري هو الذي يجعل شاعرنا المعاصر «صاحب نظرة ومنهج في تذوق الشعر وفهمه، فالشاعر .. ينمو أساسًا من التراث، والشاعر يحمل تراثه الشعري في باطنه، ومن هذا التراث الشعري يكون انطلاقه، ويكون فهمه وتقديره لدور الشعر ».[22]

وقراءة الشاعر للتراث قراءة منهجية وموضوعية، واعية موجهة وتفاعلية تكون كفيلة بربطه بماضيه، دون أن تحبسه في قوالب هذا الماضي وأساليبه لأنّ هذا الموروث «لم يكن لينتزع الشاعر العربي من عروقه أو من جذوره ولكنه كان جديرًا بأن يثير حوارًا بينه وبين الموروث الشعري القديم»[23]، ومن ثمة صارت القصيدة بمثابة استمرار متقدم للحساسية الشعرية العربية التي تمثلت في تراث شعري متنوع تنطلق من التراث لتتجاوزه إلى نفسها فتصبح مرجع ذاتها.

ومما لا شك فيه أن «آليات تشكيل القصيدة المعاصرة .. لا يمكنها أن تتحقق إبداعيا إلاَّ بعد أن يحدد الشاعر موقفه من الموروث أولاً، وعلاقة هذا الموروث بالقصيدة في مرحلة ثانية»[24]، لأنّ الشعر ينمو من داخل التراث الشعري والحوار الذي يدور في نفس الشاعر هو حوار بين تراثه الشعري وبين العالم.

ومعرفة الشاعر للعالم هي التي «كانت وراء هذا النص الحدث، المنفتح المنغلق، وهي المؤشرات التي ترشد المتلقي إلى الطريق المباح المؤدي إلى المعنى».[25]

لقد كانت عودة الشاعر العربي المعاصر إلى التراث عودة فنية، لا تقوم على أساس المتابعة والتقليد، ولا تدعو إلى المقاطعة والإهمال، وإنما تستلهم ذلك التراث في نتاجات أدبية متميزة تجمع بين الأصالة والمعاصرة، وتمدُّ أواصر الماضي في الحاضر وتوجهها نحو المستقبل.

وقد كان التراث خلقا للحياة والخلود يحتضن التجربة ويقدم الرؤية، ذلك كله في أسلوب قوامه التلميح والترميز، ولغة أساسها الإيجاز والتكثيف تشعّ بالإيحاء والظلال.

وبموجب هذا التوظيف، وهذه المثاقفة تحول النص الشعري المعاصر إلى متن مفتوح على مختلف القراءات في ارتباطاتها بمختلف الأزمنة والأمكنة، ومن هنا كان لابد من مراجعة التراث وتنميته وحسن محاورته ومثاقفته لاستجلاء قيمه واستثمارها وتوظيفها جماليا وفكريا.

وصدق عبد الصبور حين قال: «التراث هو جذور الفنان الممتدة في الأرض، والفنان الذي لا يعرف تراثه يقف معلقا بين الأرض والسماء، .. التراث عنده هو ما يجد فيه غذاء روحه، ونبع إلهامه، وما يتأثره أو يتأثر به من النماذج، فهو مطالب بالاختيار دائما، مطالب بأن يجد له سلسلة من الأدباء والأجداد من أسرة الشعر»[26]، وما يؤكد هذا قول "إليوت" «خير أجزاء القصيدة، بل وأكثرها تميُّزا، هي تلك التي تُؤَكَّد فيها آثار أسلافه الموتى من الشعراء خلّدوها في أقوى صورة»[27].

من هنا يمكننا القول إنّ الشاعر العربي المعاصر قد ثاقف التراث من أجل المحافظة على أصالته وأصالة شعره ويثبت تميزه في تجربته الشعرية المعاصرة.

الهوامش و المراجع

(1) علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 1997م، ص262.

(2) م ن، ص58.

(3) صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، دار العودة، بيروت، 1969م، ص113.

(4) كاملي بلحاج، أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة (قراءة في المكونات والأصول)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2004م، ص26.

(5) م ن، ص17.

(6) السعيد الورقي، لغة الشعر العربي الحديث، مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2002م، ص40.

(7) علي عشري زايد، م س، ص121.

(8) علي جعفر العلاق، في حداثة النص الشعري، دراسة نقدية، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 2003م، ص37.

(9) إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي الحديث، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد02، أبريل1978م، ص118.

(10) فاتح علاق، مفهوم الشعر عند الشعراء الرواد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2005م، ص14.

(11) م ن، ص21.

(12) نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، ط4، 1974م، ص65.

(13) عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، 1981م، ص28.

(14) حسن فتح الباب، سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997م، ص70.

(15) علي عشري زايد، م س، ص31.

(16) أحمد محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1984م، ص325.

(17) عز الدين إسماعيل، م.س، ص29.

(18) حمادي عبد الله، ديوان البرزخ والياسمين (المقدمة)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 2002م، ص09-10.

(19) حبيب بوهرر، تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، عالم الكتاب العربي، عمان، الأردن، ط1، 2008م، ص40.

(20) عزام محمد، الحداثة الشعرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1996م، ص38.

(21) إحسان عباس، م س، ص109.

(22) صلاح عبد الصبور، الأعمال الكاملة، ج9، (أقول لكم عن الشعر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م، ص422.

(23) م ن، ص427.

(24) حبيب بوهرر، م س، ص41.

(25) محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجار)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006، ص71.

(26) صلاح عبد الصبور، الأعمال الكاملة، ج9، ص150.

(27) ت.س إليوت، مقالات في النقد الأدبي، تر: لطيفة الزيات، دار الجيل للطباعة، القاهرة، ص06.

قائمــة المصادر

أولا: الكتب

1- أحمد محمد فتوح، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1984م.

2- ت.س إليوت، مقالات في النقد الأدبي، تر: لطيفة الزيات، دار الجيل للطباعة، القاهرة.

3- حبيب بوهرر، تشكل الموقف النقدي عند أدونيس ونزار قباني، عالم الكتاب العربي، عمان، الأردن، ط1، 2008م.

4- حسن فتح الباب، سمات الحداثة في الشعر العربي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997م.

5- حمادي عبد الله، ديوان البرزخ والياسمين (المقدمة)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط3، 2002م.

6- السعيد الورقي، لغة الشعر العربي الحديث، مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2002م.

7- صلاح عبد الصبور، الأعمال الكاملة، ج9، (أقول لكم عن الشعر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م.
8- صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، دار العودة، بيروت، 1969م.
9- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، 1981م.
10- عزام محمد، الحداثة الشعرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1996م.
11- علي جعفر العلاق، في حداثة النص الشعري، دراسة نقدية، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 2003م.
12- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 1997م.
13- فاتح علاق، مفهوم الشعر عند الشعراء الرواد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2005م.
14- كاملي بلحاج، أثر التراث الشعبي في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة (قراءة في المكونات والأصول)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2004م.

15- محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجار)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006.

16- نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، ط4، 1974م.

ثانيا: المجلات.

17- سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد02، أبريل1978م.